

خازنة الكتب والمخطوطات والثورات: فلسطين وأربعة آلاف عام من القراءة والكتابة

نور مصالحة

فلسطين: أربعة آلاف عام في التربية والتعليم

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2024

510 صفحات (بالعربية)

قراءة: قسّم الحاجّ، فلسطين

"إذا كانت غزة أول 'مدينة جامعية' في فلسطين البيزنطية (ولا سيما في القرنين الخامس والسادس)، فإن القدس أمست أول 'مدينة جامعية' للعلوم العربية في فلسطين ذات الكثرة الإسلامية في عصر المماليك" (269).

في البدء كانت الكلمة، وكانت في فلسطين. وفي طوبوغرافيا الكلمة، كانت فلسطين، جغرافياً وتاريخياً ومعرفياً وتربياً في قلب تواريخ ساحل المتوسط والعالم القديم. فلم تكتسب شهرتها عبر التاريخ ومركزيتها من موقعها الجغرافي فحسب، ولا من مكانتها الدينية وقداستها جغرافياً، بل كانت في مركز الحواضر والحواضر التربوية والعلمية والفكرية التي صاغت وجه العالم القديم والوسيط والحديث وفلسفته ومعرفته. وهذا من أسباب أن الكثيرين الذين مرّوا عبر تاريخها، أباطرة ومحتلين ومستعمرين، عبروا منها، ومن تاريخها، ومن سواحلها، ولفظتهم، مهما مكثوا فيها، لكنما بقي الاسم، وبقي التاريخ، وبقي اليهود، وبقيت فلسطين.

في كتاب **فلسطين: أربعة آلاف عام في التربية والتعليم**، يحلّل المؤرخ نور مصالحة أربعة آلاف عام في تواريخ التربية والتعليم والثقافة والفكر في فلسطين، التي كانت حاضنة مركزية لمدارس الفلسفة والعلم والقانون والبلغة واللاهوت في العصر البيزنطي، والفقه في العصر الإسلامي، والتي كانت كذلك حاضنة لأهم المجادلات اللاهوتية والفلسفية والعلمية التي عمّت فلسطين وانطلقت نحو العالم. وقد أدّى ذلك إلى انتخابها لتكون واجهة ثقافية وفكرية عالية متعدّدة المشارب والروافد. ويمكن اعتبار هذا الكتاب جزءاً ثانياً لكتاب آخر لمصالحة هو **فلسطين: أربعة آلاف عام في التاريخ** (2020)، والذي يتتبّع فيه نشوء الهوية الفلسطينية عبر التاريخ والثقافات منذ العصر البرونزي وحتى العصر الحديث، إذ يجادل فيه أن الوجود الفلسطيني، ووجود فلسطين سبق كثيراً نشوء الهوية السياسية الحديثة للفلسطينيين والتي تشكّلت في أواخر العهد العثماني وبدايات الاستعمار البريطاني لفلسطين.

مهجوساً بالردّ على الصهيونية وسردياتها التاريخية والاستشراقية حول فلسطين والتي نشأت في المركزية الأوروبية والاستعمارية البيضاء، والتي كانت ترسم صورة عن كون فلسطين "أرض أميين" والفلسطينيين "خطّابين وسقّائين" في سعي استعماري واستشراقي لإنكار تاريخ فلسطين الحضاري والمعرفي والثقافي الضارب في القدم والجغرافيا... يجادل مصالحة أن فلسطين، التي تعود جذور اسمها إلى أكثر من أربعة آلاف عام، حيث ظهر اسم "فلسطين" في العصر البرونزي المتأخر... كانت جزءاً هاماً من الثورات الفكرية قبل أربعة آلاف عام، لا سيما في علاقتها الوثيقة بالكتابة الأبجدية الأولى وانتقالها إلى الأبجدية السامية القديمة (13)، أو ما تمّ التعارف عليه بالكتابة "الكنعانية الأولى". ويبين مصالحة أن تاريخ فلسطين التربوي والفكري، استمر على هذا المنوال من الثورات الفكرية والتربوية والتعليمية المديدة منذ العصر البرونزي وحتى العصور الحديثة.

يعتمد مصالحة منهجاً يمكن أن وصفه بالإنصات المعرفي للسرديات والمخطوطات والموروثات الخطية المحلية في رواية تواريخ التعليم والتعلّم في فلسطين، بدلاً من الاتكاء على سرديات النخب الاستعمارية المعاصرة التي تملي مقولاتها إملاءً على التاريخ. ومن السرديات المحلية هذه يورد مصالحة أمثلة نقلت عن الباحث الفلسطيني حمدان طه، الذي تحدّث عن "نص المعلم" من تلّ بلاطة، والذي يُعدّ "قرينة أدبية تاريخية فريدة عن المدارس في فلسطين منذ 3500 عام. إنها تلقي ضوءاً على الحياة الثقافية في الحقبة الكنعانية، وتبين أوجه التشابه المدهش بين المدارس القديمة والمدارس الحديثة، من حيث النظام التربوي، والمواد التي كانت تُعلّم، وخشية التأخر عن المدرسة، والتأخير في دفع الأجرة" (19).

يتكوّن الكتاب من أحد عشر فصلاً بالإضافة إلى مقدمة وخاتمة وقائمة بالمراجع.

يتحدث **الفصل الأول**، وعنوانه "معرفة القراءة والكتابة وجانبها العملي: مدارس الكُتّبة في فلسطين القديمة" عن تاريخ طويل للكتابة المسمارية المعروفة بشكل واسع في فلسطين، التي كانت تشترك في ذلك سورية القديمة، حيث تشهد الألواح الطينية المسمارية والأدب السومرية على العلاقات الدبلوماسية بين المدن الكبرى: بابل في وادي الرافدين وسورية وفلسطين. ومن المدهش إيراد مصالحة معلومة حول أنه قد وجدت في مجدو فلسطين نسخاً من ملحمة جلجامش (الألف الثانية قبل الميلاد) ونسخاً منها أيضاً في إيمار- أوغاريت سوريا، وبوغاز كوي (تركيا). فيشير مصالحة إلى أن هذا دليل على الثقافات المشتركة الواسعة مع الهلال الخصيب لا سيّما أن اللغة الأكادية في ذلك العصر أصبحت اللغة الدبلوماسية الدولية في القرن 14 قبل الميلاد. وقد امتزجت ثقافات فلسطين بثقافات وتقاليدها مختلفة كالمصرية والآشورية والفارسية والهلنستية في أواخر العصر البرونزي وأوائل عصر الحديد (1200-600 قبل الميلاد) (88).

ويشير هذا الفصل، وإن كان التحقيق الكرونولوجي فيه مشتتاً بعض الشيء، إلى أنه قد امتزجت ثقافات فلسطين بالتربية الإغريقية واليهودية الهلنستية العلمانية. ومن أشهر المعلمين الأوائل في هذا العصر: يوسيفوس فلافيوس وفيليو الإسكندري وأنطيوخوس العسقلاني وسوسس العسقلاني. فقد كان أنطيوخوس العسقلاني موسّعاً لمنهج

تعليم الأكاديمية الأفلاطونية ومطوراً له حيث وصل إلى أن المؤسسة الأكاديمية الواحدة يجب أن تقدّم معارف متنوعة من مدراس فكرية عدّة دونما انحياز إلى عقيدة أو فكر واحد. وهو ما يصفه مصالحة بأنه عامل مركزي وجوهري في الفلسفات التربوية الحديثة (97). وبهذه الرؤية، ساهمت هذه الشخصية القادمة من عسقلان (عسقلان الساحلية كما كانت تسمى في العصر البرونزي Maiumas Ascalon) إسهاماً كبيراً في الأكاديمية الأفلاطونية في أثينا، وأسس مدرسته الخاصة في الفلسفة والتربية، وكان له بالغ التأثير في أكاديمية الإسكندرية، حيث كانت تعد آنذاك 86-87 قبل الميلاد حاضنة كوزموبوليتية لا تضاهي في التربية والتعليم (98). وقد أدّت قيادة أنطيوخوس العسقلاني لأكاديمتي أثينا والإسكندرية المرموقتين والمزدهرتين وسابقتي عصرهما، إلى الإسهام في ظهور حاضنتي تعليم متقدم ورفيع على حوض المتوسط هما قيسارية فلسطين وغزة، حيث تأسست أكاديميتا التعليم الكلاسيكي العالي والتي بلغت شهرتهما الآفاق واجتذبتا طلاباً دوليين إضافة للمحليين (98).

في الفصل الثاني وعنوانه "مدن التعليم: الثورات الفكرية في فلسطين البيزنطية (بين القرن الثالث وأوائل القرن السابع)،" وهو فصل مركزي وهام، يبيّن مصالحة أهم أنوية جامعات العالم القديم في القرن الرابع، وهي مدراس تربوية متخصصة في الإسكندرية وأنطاكية وأثينا وبيروت والقسطنطينية وغزة (99). فقد انتقل التعليم العالي في القرن الرابع من مركزية الإسكندرية ومدرسة أثينا الأفلاطونية، إلى مدينتي غزة وقيسارية فلسطين، التي كانت عاصمة فلسطين البيزنطية، حيث حلّتا محلّهما وكانتا الأكثر تقدماً وعلماً في أواخر العصور القديمة وكان لهما مركزها السياسي والثقافي الهام في فلسطين البيزنطية (100). "لم تكن فلسطين أحد أكثر البلاد ازدهاراً في منطقة البحر المتوسط فحسب، بل كانت أيضاً، مع وجود مركزي غزة وقيسارية فلسطين ذواتي النفوذ العالي في التعليم المتوسطي، ومع أعمال يوليان العسقلاني المعمارية وتخطيطه المدني، أحد أهم مراكز التعليم والنشاط الفكري في العصر القديم المتأخر" (100). فقد اشتهرت فيها مدرسة البلاغة في غزة ومدرسة القانون في قيسارية البحرية ومكتبة قيسارية البحرية، التي اكتسبت سمعة عالمية لاحتوائها على أقدم مكتبة كنسية في العصر القديم المتأخر، والتي احتوت على أكثر من ثلاثين ألف بردية ولفائف مخطوطة" (105-106).

يؤكد هذا الفصل على أن غزة وقيسارية فلسطين كانتا أشهر معالم الازدهار الثقافي والفكري والاقتصادي، حيث يورد مصالحة أن تميّز فلسطين كبلد متوسطي في العالم القديم ينضاف إلى قوتها الناعمة، كالأماكن الدينية وأكاديمياتها التربوية ومكتباتها (101). فقد "أضحى اسم غزة (ومنطقتها) "دولياً"، على مدى الحقب البيزنطية (بين القرن الرابع وأوائل السابع)، مرادفاً للكوزموبوليتية الحضرية المستريحة وللثورة الفكرية الفلسطينية في أواخر العصر القديم، وكذلك مرادفاً للأديرة المسيحية والمدارس الرهبانية، وازدهار الاقتصاد، والتعليم الممتاز المطلّ علي الخارج، والنبذ عالي الجودة المصدر إلى بلدان حوض المتوسط" (132). ومن المدهش نقاش مصالحة حول أن مدينة غزة قد تبوّأت في أواخر القرن الخامس والسادس مكانة "مدينة الجامعة" الأولى في الفلسفة في منطقة المتوسط، حيث كان لديها تأثيرات بأكاديمتي أثينا الكلاسيكيتين: أكاديمية أفلاطون، وليسيوم أرسطو، بينما استمرت الإسكندرية في القرن السادس في وصفها بأنها "مدينة جامعة" ومركزاً للدراسات الطبية، بينما تميّزت بيروت بكونها الحاضنة والمركز المرموق والنخبوي للدراسات القانونية (146).

هذا، ويدلل **الفصل الثالث** وعنوانه "من الإغريقية والسريانية إلى العربية وحركة الترجمة الفلسطينية في العصر الإسلامي: أديرة التعليم، مار سابا والآداب الجميلة العربية (بين القرنين الثامن والحادي عشر)" على أن اللغتين الإغريقية والسريانية ولاحقاً العربية كانت اللغات المتعددة للإنتاج المعرفي، حيث نُسخَت بها البرديات القديمة والمخطوطات وُترجمت بها النصوص. ويركز مصالحة في هذا الفصل على الميراث الأدبي المسيحي-المسلم المشترك، حيث اندمجت مجتمعات الغساسنة العرب الوافدين والمتكلمين بالعربية في المجتمع الفلسطيني والكنيسة الأرثوذكسية الناطقة باليونانية والمجتمعات المتحدثين بالسريانية، ما أدَّى إلى تعريب فلسطين، ببطء، من القرنين الثالث والرابع، ولكن بقيت الإغريقية هي اللغة الرسمية في فلسطين (170). وكما يشير مصالحة، فمنذ منتصف القرن الثامن، ومع بداية الخلافة العباسية أصبحت اللغة العربية اللغة الرسمية في فلسطين والشرق الأدنى والدولة العباسية (165). ولكن لم تكن لغة تواصل فحسب بل وساهمت بشكل مركزي في التشجيع على الخروج من الانقسام اللغوي الذي شهدته فلسطين البيزنطية، والذي يتجلى في الانشقاق بين اليونانية كلغة نخبة مدنية وحضرية، وبين السريانية التي كانت اللغة المحكية ولغة الفلاحين والريفين، فالعربية والتعريب شجعا على تجاوز الانقسام (175).

يناقش هذا الفصل، وبالتفصيل، كيف احتلَّت فلسطين البيزنطية في القرن الرابع، مكاناً هاماً في الترهُّب الصحراوي، بحيث أصبحت صحراء القدس مركزاً هاماً للحركة الرهبانية المسيحية في العالم، وأهمها دير مار سابا، الذي كان ينتج المخطوطات لأشهر أديرة الشرق الأوسط كدير القديسة كاترين في سيناء (167). فقد عُدَّ هذا الدير مركزاً هاماً لإنتاج المعرفة في فلسطين، حيث أكمل دوره هذا خلال الحكم الإسلامي، فشهد حركة هامة في ترجمة الأعمال الإغريقية والسريانية إلى العربية ما أزهَر حركة النقل والترجمة (171). كما وعُدَّ الدير مركزاً مميزاً في ازدهار التراجم الدينية والتراويل التي كانت تؤلَّف فيه وتنمَّع (207). وفي هذا السياق، وتحديدًا في الفترة الأموية، ظهرت شخصية هامة في الحركة الرهبانية الفكرية، وهي شخصية يوحنا الدمشقي (يحيى منصور الدمشقي)، الذي يعتبر من أهم آباء الكنيسة المشرقية الأرثوذكسية، ومن أهم من ساهم في تطوير الأعمال الأدبية المسيحية العربية بتأثرها الواضح بالمنطق الأرسطوطاليسي والفلسفة والوجود (185) حتى أصبح عمله **ينبوع المعرفة** من أهم الأعمال الموسوعية المسيحية على مستوى العالم حتى عهد توما الأكويني، كما يصف مصالحة (197).

أما **الفصل الرابع** "التعليم اللاتيني وممالك الصليبيين في فلسطين: مكتبة الناصرة"، وهو فصل قصير نسبياً مقارنة مع ما سبقه وما تلاه من فصول، يركِّز مصالحة النقاش فيه على مركزية مكانة مدينة الناصرة الثقافية والمعرفية. فمكتبة الناصرة اللاتينية يغيب النقاش حولها في الأدبيات التي تناولت الحقبة الصليبية في فلسطين، حيث يذكّر مصالحة أن أنماط المعرفة والثقافة والتعليم التي أنتجها الغزاة الصليبيون في فلسطين كانت متعددة معرفياً وثقافياً وليست نتاجهم وحدهم، بل فيها تقاليد وموارث إسلامية وعربية. وقد أسهم السكان المحليون كالمسيحيين الأرثوذكس والمسلمين في هذا النتاج، كالفنون والعمارة والفسيفساء والنحت (214). ومن أهم هذه الموروثات الفكرية والثقافية كانت مكتبة كنيسة القيامة بالقدس (التي انتقلت إلى عكا لاحقاً)، ومكتبة

الناصرية الضخمة (والمرتبطة بالكاتدرائية اللاتينية في المدينة)، وتقرن هذه المكتبة هائلة التنوع والضخامة بكاتدرائيات موجودة في فرنسا وإيطاليا آنذاك (221).

ويشير مصالحة في **الفصل الخامس** "عصر معاهد الفقه الإسلامي الذهبي في القدس: المدارس الفلسطينية في الحقبين الأيوبية والمملوكية"، إلى أن الحقبة المملوكية في فلسطين منذ العام 1260 وما بعده كانت عصرًا ذهبيًا في إنشاء المعاهد التربوية المتقدمة، فكانت مملكتا صفد وغزة من كبريات المقاطعات الإدارية في هذه الحقبة. وكان قد اختلط فيها المثقفون الفلسطينيون مع بعض علماء المسلمين الأشهر، أمثال الفارابي وابن خلدون والغزالي. ويشير مصالحة إلى أن هذه الحقبة تميّزت بإنشاء مكثف لمعاهد الفقه والتربية لا سيما في مدينة القدس، فأُنشئت المدرسة التنكزية والمدرسة الصلاحية التي تأسست في 1188-1192 (وبقيت حتى منتصف القرن التاسع عشر)، والمدرسة الخاتونية (119) (التي كانت مدرسة ومن ثم تحولت أجزاء كبيرة منها إلى مقبرة لأهم الشخصيات الوطنية والثقافية المقدسية كفيصل الحسيني وعبد القادر الحسيني وأحمد حلمي عبد الباقي، وغيرهم). يضاف هذا إلى مدارس النسك والتصوّف كخانقاه الكرامية (232). وقد شكّلت هذه المعاهد في فلسطين وبلاد الشام دوراً أساسياً في المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي (237). بالإضافة إلى كونها كانت تعتبر من أهم وألمع مدارس الفقه الإسلامية والتي كانت تنافس المعاهد في القاهرة ودمشق (270). يضيء هذا الفصل على الجهد الفلسطيني المحلي في تطور فلسطين التجاري والاقتصادي والتعليمي التربوي في الفترة المملوكية والأيوبية، حيث يركّز مصالحة على إظهار جهود الفلسطينيين المحليين، الاقتصادية والتعليمية والحرفية، في نهضة بلدهم وتطورها، فيرى أن فلسطين من الداخل كانت بجهودها المحلية وطاقاتها تطور تنوعاً معرفياً وفنياً محلياً كصناعة الزجاج الخيلية والخزف الفلسطينية والتقاليد التجارية الخاصة (236).

وعلى هذا المنوال يكمل مصالحة في **الفصل السادس** "التعدد القانوني وعالم فلسطين الاجتماعي في القرن السابع عشر: كلية الأزهر في القاهرة والعلماء المسلمون الفلسطينيون" سيرة صعود معهد الأزهر في القاهرة كمؤسسة فقهية تعليمية كبرى، حيث تفوّق في منتصف القرن السابع عشر على معاهد فقهية وتعليمية أخرى في القاهرة والقدس ودمشق، وتمركز في صدارة التعليم العالي الرسمي في القاهرة (295). وكان كثير من الفلسطينيين يدرسون في هذا المعهد الذي كان أقلّ صرامة من غيره، وربما كان سابقاً لعصره في التحلّل من إلزاميات المؤسسة التربوية وجبريتها، فكان الطلاب يختارون حصصهم الدراسية وأساتذتهم، بطريقة تتجاوز الجبرية دون امتحانات رسمية أو علامات، ويكتفون بالحصول على شهادات. وفي فلسطين تبوّأت المدرسة الأحمدية مكانة معهد الأزهر في القاهرة، ففي **الفصل السابع** "أزهر فلسطين: المدرسة الأحمدية في عكا (1782-1948)"، يناقش مصالحة حيثيات وسياقات شهرة وذيوع مدرسة عكا الأحمدية التي تبوّأت مكانة معهد الأزهر في مصر (308)، والتي كان يدرس فيها طلاب من طبقة النخبة الفلسطينية في شمال فلسطين، الذين كانوا يتأهلون منها إلى جامعة الأزهر ومن ثم إلى مهنتهم لا سيما القضائية والقانونية (309). وقد كانت هذه المدرسة فقهية وتدرّب الأئمة المسلمين ولاحقاً وفرت تدريباً لمدّرسي التربية الدينية والعربية، وكانت تحتوي مكتبة عامة وسكناً داخلياً للطلاب ومحكمة شرعية إسلامية وسكناً للحجاج ومكاتب للوقف المحلي.

كما كانت هذه المدرسة تموّل وينفق عليها من مردودات المحاصيل التجارية الدولية بين ميناء عكا والعالم لا سيّما من محاصيل القطن (312)، ما يشير إلى الاستقلالية والاكتفاء المادي لحدّ كبير الذي حققته هذه المدرسة ضمن سياق نهضة وتطور فلسطين الثقافي والاقتصادي.

وفي خضم الثورة الرأسمالية والحداثية التي عمّت أوروبا في القرن التاسع عشر، كانت الإمبراطورية العثمانية تقوم بإصلاحات دستورية في العام 1908 نتج عنها تخفيف القيود المفروضة على الصحف والمطبوعات، ما قاد إلى حدوث ثورة كبيرة على مستوى الرأسمالية الطباعية في الإمبراطورية وقد انعكس ذلك على ثورة المطبوعات التي عمّت فلسطين. في **الفصل الثامن** "الحداثية والطباعة والتعليم العام: ثورة التعليم في فلسطين في أواخر العصر العثماني وسنوات الانتداب 1860-1948" يتحدث مصالحة عن الثورة الطباعية والصحافية الحديثة في أواخر القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين التي عمّت فلسطين. ففي خضم الرأسمالية الطباعية، والرأسمالية الحداثية الأوروبية، تزايد الطلب على الورق من أوروبا والتي كانت تستورد عبر يافا وبيروت نحو نابلس (316). فازدهرت ثورة الصحافة في فلسطين التي كان فيها وحدها 32 صحيفة، ما أدّى إلى ثورة تربوية في فلسطين في أواخر الحقبة العثمانية والانتدابية، الأمر الذي اقترن بتقدّم كبير على المستوى الطبي وإنشاء المستشفيات والعيادات الحديثة (316). وهذا قاد بدوره إلى توسّع سكانى، وتوسّع في النظام التربوي في فلسطين وأحدث نهضة علمانية بإنشاء المدارس العلمانية في فلسطين وذيوع انتشارها، حيث أدت المدارس الروسية الأرثوذكسية ومعاهد تدريب المعلمين دوراً مركزياً في هذه النهضة، ما ترافق مع نهضة كبرى في البعثات الأوروبية المسيحية (317-318).

يقرن مصالحة هنا التطور النهضوي والفكري والتعليمي والعلماني في فلسطين منتصف القرن التاسع عشر والقرن العشرين بنهاية العهد العثماني وبداية الحقبة الانتدابية، وهي عوارض تقدمية ونهضوية انعكست أيضاً على تطوّر وسائل النقل الحديثة كالقطارات وسكك الحديد، والنهضة الموسيقية والتصوير الفوتوغرافي، وغيرها. ويضيء مصالحة على قضية جوهرية في هذا السياق وهي أن كثافة البعثات الأوروبية المسيحية التبشيرية في هذه الفترة، وتنافسها بين بعضها البعض، يدلّ أيضاً على توجّهات واضحة تعبر عن مصالح القوى الاستعمارية وأطماعها في فلسطين (320).

ومع ذلك، فإن الجهود الفلسطينية المحلية في التربية كان لها أثرها الطويل والهام في إصلاحات النظام التربوي، فيلقي مصالحة الضوء في **الفصل التاسع** "التربية الإنسانية والنهضة العربية: خليل السكاكيني وإصلاح التربية الفلسطينية"، على جهود المربي الألمعي خليل السكاكيني، والتي كانت سبّاقة لعصرها فيما يخصّ ثورته التعليمية والفكرية والتي ابتناها على الفلسفة الأرسطوية، وفلسفة ابن مسكويه في "فلسفة السرور" والتعلم للمتعة (369). فقد أسس السكاكيني المدرسة الدستورية في القدس في العام 1909، والتي شكّلت نموذجاً مثالياً للتعليم، وساهم في النهضة الأرثوذكسية في العام 1913، "كحركة عربية جذرية ثقافية، سعت لدعم توطين (Vernacularization) الأرثوذكسية وتعريب هرمية الإكليروس الذي يسيطر فيه اليونانيون على كنيسة عموم

فلسطين للروم الأرثوذكس" (363).

وفي **الفصل العاشر** "التعلم بدءاً من الأسفل: مدارس الكتاب في فلسطين (المسلمة واليهودية والمسيحية)" يبدو التحقيب الكرونولوجي المنتظم للكتاب حتى هذا الفصل وقد اضطرب بعض الشيء هنا، إذ يعود مصالحة ويركّز على نشأة مدارس الكُتّاب في العصر الوسيط في فلسطين، ولكن هدف مصالحة هو إزالة اللبس الذي اعترى مدارس المكتب والكُتّاب في العصور الوسيطة والتي قامت بدور المؤسسة التربوية التي مهّدت للثورة التعليمية والتربوية في عصور لاحقة (383). ومن مدارس الكُتّاب هذه كان الكُتّاب اليهودي في طبريا، كمكان هام للتعليم الديني اليهودي بالعربية، وكتاتيب محو الأمية. ويخصّ هذا الفصل اليهودية العربية وتأثيرها بالموروثات الإسلامية العربية بالتحليل، لا سيما في أعمال شخصية موسى بن ميمون ورحلته المعرفية.

والفصل الحادي عشر "بين المهنية الوطنية والثقافية: التربية الفلسطينية في فلسطين زمن الانتداب 1918-1948"، يناقش فيه مصالحة نشوء الكلية العربية الحكومية في القدس 1919 والتي رأسها على التوالي: خليل السكاكيني و خليل طوطح وأحمد سامح الخالدي، والتي كان اسمها بداية دار المعلمين، والتي أشرف على تأسيسها البريطانيون بواسطة قسم التربية في حكومة فلسطين في عهد الاستعمار البريطاني (404). وقد شكّل هذا المعهد ثورة تربوية "خرّجت جيلاً من المدرسين الفلسطينيين العرب الناشطين والمثقفين، المتحمّسين لتربية النهضة العابرة القومية والإنسانية، بأبعاد تضامنها القومي العربي والدولي المعادي للاستعمار، وهم جيل كان كذلك في طليعة حركة الأحياء الفلسطيني الجذري المتضافرة دولياً، في ستينيات القرن العشرين وسبعينياته" (409). يعرّج مصالحة في هذا الفصل على الحركة النهضوية الثقافية والتعليمية في الجامعات في بلاد الشام لا سيّما الجامعة الأمريكية في بيروت وجامعات مصر، التي شكلت روافد للتعليم الجامعي للفلسطينيين.

أما خاتمة الكتاب "المكتبات والمجموعات الأرشيفية وسجلات المحاكم الشرعية في فلسطين الحديثة"، فيسرد فيها مصالحة كيف تمّت سرقة مكتبات الفلسطينيين، على نحو منهجي، في نكبة الكتب الموازية لنكبة الفلسطينيين في العام 1948، والتي نهبها جامعو الكتب الذين كانوا يمشون الحافر على الحافر مع العصابات الصهيونية. هذا بالإضافة إلى تبيانه كيف ساهم ناهبو المخطوطات الأوروبيون وصائدو الكتب في سلب محتويات مكتبي دير مار سابا والقديسة كاثرين في القدس... ولذلك كله، فإن هذا الكتاب، مثل فلسطين، جدير بأكثر من قراءة، وأكثر من كتابة